إستراتيجيات الخطاب عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

د/ بولفعة خليفة

جامعة جيجل

تمهيد

يعتبر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي فخر علماء الجزائر، كما وصفه رفيق دربه في الجهاد والإصلاح الإمام ابن باديس[1]، و قامة كبيرة في اللغة والبلاغة والأدب والخطابة .ومما لا شك فيه فهو:"فلتة من فلتات الزمان، وأن العظمة أصل في طبعه"[2]كما وصفه الشيخ العربي التبسي رحمة الله عليه ."وكان... في الصف الأول من أولئك العلماء الذين أذنوا في الشعب الجزائري لينهض من سباته، ويأخذ للحياة سلاحها، ويخوض الخطوب لاسترجاع حقوقه، واستعادة استقلاله، والثأر لكرامته"[3] وهو ما جعله يقضي معظم حياته في التربية والإصلاح وتربية النشء، وهو ما جعله يبتعد عن تأليف الكتب ويهتم بتربية الأجيال، منشغلا بمسؤولياته القومية في الحركة الإصلاحية والتربوية" [4]،على غرار كثير من المصلحين والمجاهدين العاملين، من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في المشرق، والشيخ سالم بوحاجب في تونس، والشيخ محمد بن العربي في المغرب ، وهذا ما يؤكده بنفسه:"**لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة، مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له لغته ودينه،فأصبح مسلما عربيا، وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنسانا أبيا، وحسبي هذا مقربا من رضى الرب ورضى الشعب**"[5].

وهذا ما يفسر صلابة الرجل وقوته، ورفضه لوظائف الحكومة ومغريات الحياة التي كانت تعرض عليه. لقد كان الرجل يشعر بثقل المسؤولية ينوء بها كاهله، ف" **يزأر في خطبه كأنه أسد جريح** : يقول عنه العلامة محمد الغزالي رحمه الله:"..**كان لكلماته دوي بعيد المدى، وكان تمكنه من الأدب العربي بارزا في أسلوب الأداء وطريقة الإلقاء، والحق إن الرجل رزق بيانا ساحرا، وتأنقا في العبارة، يذكرنا بأدباء العربية في أزهى عصورها...وكان في خطبه يزأر كأنه أسد جريح،فكان ينتزع الوجل من أفئدة الهيابين، ويهيج في نفوسهم الحمية لله ورسوله، فعرفت قيمة الأثر الذي يقول ":إن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشهداء**"[6]

وعندما تبوأ مقعده في مجمع اللغة العربية في القاهرة كتب عنه رفيق دربه احمد توفيق المدني:" رزقه الله علما غزيرا فياضا، متعدد النواحي، عميق الجذور. يخيل إليك أن معلومات الدنيا جمعت عنده. وحافظة نادرة عز نظيرها...فأصبح فكره أشبه بموسوعة علمية كبيرة جمعت علوم الدين التي بلغ فيها مرتبة الاجتهاد، إلى علوم الدنيا مهما تباينت واختلفت...إلى شتى أنواع الأدبين القديم والحديث، بين منظور ومنثور، إلى تاريخ الرجال والأمم والدول، إلى الفلسفة والحكمة، إلى بدائع الطرائف والملح والنكت. ويضاف إلى هذا كله فصاحة في اللسان، وروعة في البيان ، وإلمام شامل بلغة العرب وملكة في التعبير مدهشة، جعلته يستطيع معالجة أي موضوع ارتجالا على البديهة، إما نثرا أو نظما..وليس هذا فقط بل إن درايته الكاملة بجميع ما في الوطن الجزائري، إذ يحدثك حديث العليم الخبير عن أصول سكانه وقبائله، وأنسابه ولهجاته، وعادات كل ناحية منه، وأخلاقها،وتقاليدها، وأساطيرها الشعبية، وأمثالها، وإمكاناتها الاقتصادية وثرواتها الطبيعة[7].

وقد ورد في مجلة الثقافة بمناسبة الذكرى العشرين لرحيله تقريظا من أحد تلامذته الدكتور عبد المجيد مزيان رحمه الله: "**وكان في أسلوبه الخطابي معجبا بروائع اللغة العربية، متعشقا لآثار الفطاحل المبدعين في العصور النيرة من الجاحظ إلى ابن خلدون.وكان مع هذا كله قدوة في سهولة المعاملة والاتصال، بشوشا مرحا في مجالسه، واسع الصدر في ممارسة المسؤوليات متفجر الحيوية في أنشطته الثقافية، كاتبا وخطيبا، وصحافيا وإماما وأستاذا ... إن الأستاذ الإبراهيمي قبل أن يكون إماما مصلحا، وفقيها أصوليا، ومربيا حكيما، وسياسيا محنكا،كان أديبا شاعرا، وخطيبا مفوها، يهز القلوب ببيان ساحر، يعيد للأذهان ما كان للخطابة العربية من مكانة وسلطان في عهودها القديمة الزاهرة.**

وهو محدث بارع لطيف، يعمر مجالسه بالحكمة، ويجملها بالنكتة، ويعطرها بأريج اللطف، ينعش الأرواح، ويؤنسها بشعاع من الفكر يهدي العقول[8].

وليس غريبا أن تتم مبايعته ملكا للغة العربية في القاهرة، حاضرة الفكر والأدب والثقافة في ذلك الوقت، من طرف الفيلسوف منصور فهمي والأستاذ الكيلاني بعد الاستماع إلى محاضراته:"**إن هذا المنبر الذي يقف فيه هذا الشيخ ساحة مقدسة، ينبغي ان يدخلها الناس كما يدخلون الحرم.وقال إنه لم يسمع ولم ير– في حياته– من هو أفصح وأبلغ من الشيخ**

الإبراهيمي، ودعا جميع الأدباء والعلماء في الوطن العربي أن يلقوا إليه مقاليد اللغة والبيان. ثم خاطب الشيخ قائلا: "أنت ملك العربية لهذا العصر، ملكت ناصيتها ونواصينا" وبعد ذلك أعلن الأستاذ الكيلاني المبايعة[9].

وكما هو حري برجل كهذا أن يمتلك ناصية البيان وقوة الخطاب التي تستجيب لأحدث النظريات التداولية الحديثة، إذ يبدو خطاباته ذات إستراتيجيات محكمة وبلاغة وحجج دامغة بفعل ثقافته اللغوية الكبيرة، واطلاعه الواسع على الأدب القديم والحديث، والفلسفة والتاريخ وعلوم الحديث والتفسير، فإنه حري بنا أن نحاول البحث في أسرار هذه البلاغة الساحرة، والقدرة الفائقة على الإيصال والتأثير، مبرزين بعض العوامل التي جعلته يكتسب هذه الهالة البلاغية النادرة، في ضوء النظرية التداولية مبرزين بعض استراتيجياته الخطابية والحجاجية:

الاستراتيجيات الخطابية

يعتبر مفهوم الإستراتيجية من المفاهيم الحديثة المنتشرة التي تتقاسمها عدة ميادين وحقول معرفية متنوعة، مثل الميدان السياسي، والاقتصادي والثقافي، والرياضي... وهذا ما يصعب من تحديد مفهومها بدقة[10]. وإذا ما حاولنا تحديدها حسب الدراسات الغربية منذ الإغريق حتى العصر الحديث، فهي عبارة عن موضوع أو هدف يتم تحديده بدقة، أو مجموعة من الأفعال المنظمة الموجهة لغاية محددة هي الحرب[11] وبذلك فهي لا تختلف كثيرا عن المعنى المعجمي الذي وضع لها أصلا في اللغة اليونانية[12].

وقد وظفت الدراسات اللغوية هذا المفهوم للدلالة على توجه خطابي معين وفق ظرف وسياق خاص بغية الإقناع والتأثير. ويرجع مفهوم الاستراتيجية للاختيارات الممكنة للمتكلم في وضعية تواصلية معينة. بحيث أن الفعل اللغوي لن يكون خاضعا لأي حتمية تؤثر في انبنائه. ليس هناك أي كلام لغوي جاهز. وبذلك فإن كل تلفظ هو فريد من نوعه. وإذا كان الجانب النحوي والقانون التواصلي والخطابي معطيات في غاية الأهمية يجب الالتزام بها حتى تكون الأفعال الكلامية داخل الخطاب ناجعة، فإنها لن تكون ذات تأثير حاسم في الاختيارات الممكنة التي يمكن أن تتم في عملية إنشاء الخطاب ومن هنا يمكن أن نقول أن كل اختيار لغوي في هذه الحالة هو اختيار استراتيجي، باعتباره اختيار من بين اختيارات أخرى تم استبعادها.

أما في الدراسات اللغوية فقد استعير هذا المفهوم للدلالة على توجه خطابي معين في ظروف وسياق خاص نحو متلق أو عدة متلقين وفق ما يعرف بفن التحكم والتنسيق بين الأفعال من أجل الوصول إلى الإقناع والتأثير ثم التحكم والتوجيه، في مواجهة احتمالات مختلفة يمكن أن تعترض سبيلها، فيمكن احتواؤها بتخمين بعض الفرضيات المتضمنة في سلوك الآخرين. كم توصف بأنها إرادية وصعبة، فالأولى لأن ما تحققه مشروط بإرادة الذات الفاعلة،والثانية لأن مثل هذا التحقيق يتطلب مجهودا كبيرا ومستمرا لما يعترض ذلك من عقبات[13]

ومن هنا يمكن إرجاع إشكالية الإستراتجية الخطابية، حسب Gumpers إلى العلاقة بين الموقف أو السياق والنشاط اللغوي، في مقابل التصور الكلاسيكي الذي تكون فيه النشاطات اللغوية متأثرة بالسياق ،ولذلك فهو يرى أن السياق ليس معطى ماديا ولكنه نتاج للنشاط التخاطبي ،وعليه فإن الإستراتجية الخطابية الفعالة تتضمن ثلاثة عناصر هي: الكفاءة التواصلية للمتخاطبين ،وكذا مبدأ الانسجام الخطابي بالإضافة إلى ملاءمة التفسير المرتكز على استدلالات المحادثة .والكفاءة التواصلية تتضمن اختيار الإستراتجية الفعالة،أي الإستراتجية المناسبة في موقف تواصلي معين[14]ومن هنا " لا يعتبر الخطاب وسيلة فقط ،بل هو غاية في حد ذاته، فبالإضافة إلى كونه وسيلة إخبارية تهدف إلى التأثير على المرسل إليه عندما يتلفظ به،يكون من وراء إستراتجية إقناعية وحجاجية [15]

الكفاية التداولية في المنظومة الخطابية عند الإمام الإبراهيمي

يتمتع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بقدرة خطابية هائلة جعلت منه ينتهج عدة استراتيجيات خطابية وفق السياق بمفهومه التداولي، السياق اللغوي والسياق النفسي والسياق المقامي، وبكافة عناصره من مرسل ومرسل إليه وما بينهما من عناصر مشتركة [16] يستوي في ذلك الخطب المكتوبة أو المرتجلة التي تكشف فعلا عن استراتيجية خطابية محكمة وكفاية تداولية عالية تساعد على إدراك الموقف العام والسياق الخاص وتتمثل فيما يلي:

الملكة اللغوية[17]: وتتمثل في التشكيل اللغوي والبلاغي ونورد في هذا الصدد على سبيل التمثيل لا الحصر الرسالة التي بعث بها الشيخ الإبراهيمي إلى جريدة الإصلاح [18]:" **الأخ الأستاذ الشيخ الطيب العقبي–حفظه الله–وسدد في الحق خطاه.قد اطلعت أيها–الأخ–على العدد الأول والأخير من جريدة "الإصلاح" على حين فترة من الجرائد، وكلال طبع**

من معاناة التعليم، فتحقق عندي ما لم أكن أجهله من أن صروف الدهر وأحداث الزمان لا تنال من النفوس الكريمة نيلا إلا من ظواهرها، ولا تغير من الأعراق الأصيلة شيئا من أعراضها. وأنها أعجز من ان تمتد إلى مكامن المبادئ الراسخة والعقائد الثابتة.

كذلك يبتلي الزمان الجرائد بما يبتلي النفوس، ويأخذ منها ويدع ، فلا يأخذ من الجرائد المؤسسة على فكرة إلا كما يأخذ السيل من الصخرة الصماء.

سرني من جريدة "الإصلاح" ما يسر كل معتنق لفكرة من وجود لسان يعبر عنها، وسنان يناضل دونها وسرني فوق ذلك ما يسر بناة الإصلاح من معان لا تستوفيها كلمات في رسالة.أما بعثه بعد سنين فمما لا عجب منه عندي ما دمت أعرف العزيمة التي بعثته، وكل من يستحضر لغة "الإصلاح" القديم"و" الإصلاح" الجديد ير أن الروح المديرة واحدة والفكرة المصرفة واحدة، فلم يبق من الفوارق إلا بضع سنوات وهي ليست بذات أثر في حياة الفكر.

وإن أخاكم لا يرجو لتلك العزيمة "العقبية" إلا أن يزيدها الله ثباتا في الدفاع عن الحقيقة، وان يقيها عثرات القلم وفتنة الرأي"

في 20 ذي القعدة 1358

ودمتم لأخيكم

محمد البشير الإبراهيمي

عند ملاحظتنا لهذه الرسالة نجد أنها تستوفي جميع الشروط التداولية:

الملكة اللغوية: التي تعتبر عنصرا أساسيا في التبليغ والإيصال خاصة قوة اللغة ورزانتها بما يتطلبه الموقف لرجل من رجال الإصلاح التي تصطبغ بلغة المربي الموجه والعالم العارف بشؤون السياق العام المؤطرة لسيرورة الخطاب المتمثل في رسالة تحفيز ومساندة لزميل ورفيق درب .تجمع بين قوة لغة رسائل الخطابة العربية القديمة المعبرة عن الحزم في المسير والمضاء في الأمر بإذن الله، ونفعية الحياة في تلك الفترة العصيبة من حياة الجزائر العصيبة، القائمة على البذل والتضحية والصبر والثبات :وتبدو هذه الملكة اللغوية: السجع القائم على نمطية خطباء العرب العرب والخلفاء المتمكنين من ناصية اللغة وخاصة الصناعة اللفظية التي تعتبر بالنسبة للإبراهيمي خاصية مميزة، التي يحاول من خلالها إبراز جمال اللغة العربية وقوة تأثيرها خاصة الجناس الذي يضفي على

الخطاب جرسا موسيقيا يؤثر في المتلقي ويشده إليه أكثر" الأخ الأستاذ الشيخ الطيب العقبي- حفظه **الله**-وسدد في الحق **خطاه**. وكذلك: وكلال طبع من معاناة التعليم، فتحقق عندي ما لم أكن أجهله من أن صروف الدهر وأحداث الزمان لا تنال من النفوس الكريمة نيلا إلا من **ظواهرها**، ولا تغير من الأعراق الأصيلة شيئا من **أعراضها**

الملكة المنطقية: وتتمثل في التسلسل المنطقي الذي اتبعه الشيخ في بث مرسلته ابتداء من غعلانه الاطلاع على العدد الأول والأخير، وعندما يعلن بأنه تحقق عنده ما لم يكن يجهله، مستدلا بأن الاحداث مهما عظمت لن تؤثر في الهمم ولن تنال منها، ما دامت مخلصة لله راغبة، وفي هذا ستنتاج منطقي بل وبديهي، خاصة إذا تقلدتها نفوس كبيرة مثل الطيب العقبي من أصحاب المبادئ الراسخة والعقائد الثابتة. من ثمة فإن الزمان لن ينال من الجرائد المؤسسة إلا كما ينال السيل من الصخرة الصماء.

الملكة المعرفية: يبدو من خلال هذا الخطاب أن للإبراهيمي معرفة موسوعية بالحياة والتاريخ والسياسة وعلم النفس أيضا:يظهر هذا من خلال قوله اطلعت العدد الأول والأخير، وفي هذا التقرير تظهر شخصية الإبراهيمي الواثقة العارفة بموضوعها وهدفها المنشود، فهو لا ينطلق من فراغ، وإنما من حقيقة واقعة ماثلة أمامه باعتبارها عينة لدراسة ظاهرة واضحة أمامه. وكذلك يقرر النص معرفة الإبراهيمي بحقائق التاريخ السياسي والنضالي الذي ينتصر فيه الثابتون والصابرون دوما، وهو ما يعتبره حقيقة تاريخية لا مراء فيها: **فتحقق عندي ما لم أكن أجهله من أن صروف الدهر وأحداث الزمان لا تنال من النفوس الكريمة نيلا إلا من ظواهرها**". "وكذلك تقريره الواضح بمعرفة الخبير المطلع على حيثيات النضال السياسي، باعتباره كاتبا وخطيبا وصحفيا ومصلحا، بأن الزمان سينصف أهل الحق وينتصرون في النهاية:" **فمما لا عجب منه عندي ما دمت أعرف العزيمة التي بعثته، وكل من يستحضر لغة "الإصلاح" القديم"و" الإصلاح" الجديد ير أن النور المديرة واحدة والفكرة المصرفة واحدة، فلم يبق من الفوارق إلا بضع سنوات وهي ليست بذات أثر في حياة الفكر**.

الملكة الإدراكية: وتتمثل هذه الحالة في إدراكه الشامل للسياق وعناصره من مرسل باعتباره مصلحا وناصحا لرفيقه . وكذلك من ناحية المرسل إليه من خلال مناداته بالأخ والأستاذ والشيخ وهي ألقاب تعبر عن التضامن والمحبة والمصير المشترك، تنم عن احترام وتقدير لمجاهد عامل لا

يخاف في الله لومة لائم" .كما يعبر في هذا الصدد عن سروره ورضاه عما قام به المرسل إليه من مجهود ككل بالنجاح:" **سرني من جريدة "الإصلاح" ما يسر كل معتنق لفكرة من وجود لسان يعبر عنها، وسنان يناضل دونها وسرني فوق ذلك ما يسر بناة الإصلاح من معان لا تستوفيها كلمات في رسالة"**

وتصل هذه الملكة الإدراكية ذروتها عندما يصف الإبراهيمي عزيمة رفيق دربه :"بالعزيمة **العقبية**" وهي صيغة تحبيبية تريد حصر هذا الإنجاز الفريد لصاحبه، فلا يريد أن يغمطه حقه، مما يؤكد أن الرجل ينزل الناس منازلهم الحقيقية، وهو اعتراف منه بقوة هذا الرجل المصلح، هو موقف يعبر عن موقف كريم من رجل عظيم في حق احد رفقائه.

الملكة الاجتماعية: تبدو هذه الملكة واضحة من خلال إدراك الإبراهيمي لضرورة تطور المجتمع البشري الذي يعمل أهله على ترتيبه وإصلاح، ويبدو هذا من خلال تمييزه بين "الإصلاح" القديم و"الإصلاح "الجديد:" **وكل من يستحضر لغة "الإصلاح" القديم"و" الإصلاح" الجديد يرى أن الروح المديرة واحدة والفكرة المصرفة واحدة، فلم يبق من الفوارق إلا بضع سنوات وهي ليست بذات أثر في حياة الفكر. وهذا يبرز إدراك الإبراهيمي ومعرفته بحقيقة تطور المجتمع يتطلب زمنا ونضالا حتى يتحقق بصورة ناجعة.**

ملكة لغوية- ملكة منطقية-ملكة معرفية- ملكة إدراكية - الملكة الاجتماعية(58) وقريب من هذا التصنيف ما ذهب إليه القرطاجني ما سماه بالقوة الحافظة والقوة المائزة والقوة الصانعة[19]

الإستراتيجية التضامنية:

الرسالة الموجهة للطلبة الجزائريين في تونس بمناسبة ذكرى الإمام عبد الحميد بن باديس "أحيي بتحيات الله المباركة الطيبة أبنائي المهاجرين في سبيله، لا أخص بتحية من ينتسبون إلى وطن، أو تجمعهم جمعية؛ بل اعم من يظلهم دين ويربطهم لسان، ويجمعهم جامع، أولئك كلهم أبنائي، يستوون في حبي لهم، وعطفي عليهم، وآمالي فيهم،آحادهم وجموعهم"[20]

التوظيف الرمزي والتاريخي وظف الإمام الإبراهيمي في هذه الرسالة إستراتيجية تضامنية بارعة، خاصة من خلال إدراكه للسياق التاريخي والوطني والرمزي المتمثل في ذكرى رحيل الشيخ ابن

باديس باعث النهضة الجزائرية الحديثة. وهو ظرف قمين بان يحفز الطلبة المهاجرين من أجل اكتساب العلم والمعرفة التي أفنى الشيخ الراحل حياته من أجلها، لتسلم الرسالة من أمثالهم من الأجيال.

الشعور بتحمل المسؤولية: وفي يحاول الشيخ الإبراهيمي بصورة رمزية وذكية إبلاغ هؤلاء الموجودين في الغربة، خاصة في هذه المناسبة التي تذكرهم برحيل ابن باديس، ليستلهموا منه القوة والمثابرة والصبر والجهاد من أجل ترقية هذا الوطن.

التضامن مع الطلبة في الغربة : إشعارهم بأنهم أرسلوا لأداء مهمة، وبأن جمعية العلماء المسلمين تتابعهم وتحفزهم وتذكرهم بأرض الوطن الذي هجروه من أجل العلم .

ويظهر هذا التضامن من مخاطبتهم باعتباره أبا وليس مسؤولا متعاليا؛ وفي هذ النوع من التواصل يزيدالمتلقي تأثرا وحماسة واستجابة:" أحيي بتحيات الله المباركة الطيبة أبنائي المهاجرين في سبيله" كما يخاطب الأب أبناءه. وفي هذا ما يزيد من تأثرهم وتمسكهم بالوطن، مما يحول حماسهم وحنينهم إلى الوطن، فيحاولون فداء وطنهم وتكريمه وتمثيله أفضل تمثيل.

التذكير بأن العلم جهاد في سبيل الله : ولا يخفى ما لكلمة الجهاد من مفعول سحري في نفوس هؤلاء الطلبة، فوجودهم خارج الوطن، ليس من اجل السياحة والترفيه، وإنما في مهمة وطنية مقدسة.

وحدة الدين واللسان : يحاول الشيخ الإبراهيمي في هذ المقدمة ان يلقي في خلد هؤلاء الطلبة، بانهم ليسوا وحدهم في هذه المهمة، بل إن مهمتهم تندرج ضمن النهوض بالأمة من خلال وحدة الدين واللغة، مما يجعل من هذه المهمة التي دعوا إليها مهمة جامعة شاملة ، تندرج ضمن إطار واحد، هو وحدة الامة العربية والإسلام يتمثل في هذا التضامن الذي يقضي على النشاز والتفرق. فهو مثل الأب لا يمكنه ان يفرق بين أبنائه، كما ان الوطن لا يفرق بين أبنائه المخلصين.

إزالة المسافة بينه وبين الطلبة: في هذه الرسالة لا يتكلم بلغة المسئول الصارم المراقب والمحذر، وإنما بلغة الأب الحنون الذي يعطف على أبنائه وينصحهم دون رسميات. وهذه الاستراتيجية هي الغالبة في رسائل الإبراهيمي، عندما يتعلق الطلبة، وتلامذته وممثليه في شعب الجمعية عبر الوطن، ومحرري الصحف،مثل الطيب العقبي والتبسي ،وتوفيق المدني...رحمهم الله جميعا

ومن ثمة فإن الإستراتيجية الحجاجية هي مجموعة من الأفعال اللغوية المرتكزة على منطق خطابي متضمن داخل هدف أو قوة حجاجية[21]

وهذا ما يؤكده فلاسفة اللغة المحدثين H.Paul Grice بحيث يرى أن مبدأ التواصل اللغوي يخضع لمبدأ قاعدي، وقانون أساسي للخطاب سماه مبدأ التضامن أو المشاركة بين المرسل والمرسل إليه–وهما العنصران المحوريان في المخاطبة[22]

يتمثل هذا النوع من الإستراتيجية بمحاولة المرسل بإزالة المسافة بينه وبين المرسل إليه، إذ يظهر احترامه ورغبته في المحافظة على ذلك، حتى يشعره بأنه قريب منه فلا ينفره. ويتم ذلك على أساس من التودد والتأدب في الحديث إليه ومخاطبته بما يفهم من ويستأنس لحديثه حتى يشعر بأنه يتحدث إليه دون خلفيات أخرى،حتى يتواصل معه على أحسن ما يكون يحس المرسل إليه كان بينهما هدفا مشتركا. وفي هذه الحالة يبدو الطرفان متساويان وتستمر العملية من البداية حتى النهاية، بحيث تخلو من الجانب الرسمي، إذ يتم الفصل بين الصفة الوظيفية والصفة الذاتية. فتتأسس فإذ تتأسس العلاقة الخطابية على اعتبار ما كان وما سيكون.ويدخل في هذا الإطار اختصار بالمسافات الاجتماعية وتذوب الفوارق بين الطرفين كما هو الحال بين الشيخ الإبراهيمي /الطلبة. ويدخل في ذلك اعتبارات أخرى مثل القرابة والوطن والديانة ومحاولة المشاركة في المسائل الشخصية[23]

الآليات اللغوية في الحجاج:

المفعول لأجله: وفي سبيل الوصول إلى غايته التداولية المتمثلة في الإقناع والتأثير، يوظف الإبراهيمي أدوات لغوية مثل المفعول لأجله الذي يعتبر لفظا من ألفاظ التعليل، باعتباره مصدرا يدل على سبب ما قبله ومبينا علته، بحيث أن من خصائص المفعول لأجله مشاركة عامله في الوقت وفي الفاعلية، مما يدل على قوة حجاجيته في الخطاب الإقناعي:"وأحق الله الحق، وأبطل الباطل..." [24]. كما ورد في نفس الخطاب المتعلق بفصل الدين عن الحكومة، أو فصل رمضان والأعياد عن قاضي الجزائر سنة 1949:" **يوحي شيطان الاستعمار إلى الحكومة وحيا متتابعا لا فترة فيه**"[25]. ومن ذلك قوله أيضا في نفس السياق:" **والدولة الفرنسية نفسها تعترف بهذه الحقيقة اعترافا صريحا**"[26]....

وكذلك قوله"**تواردت توارد القطا على منهل، وتزاحمت تزاحم الحجيج على منسك**"[27]

وما يمكن ملاحظته هنا أن توظيف هذه الأداة البلاغية في سياق تشتد فيه نبرة الخطاب وقوته، مما يؤكد وعي الإبراهيمي التام بأسرار اللغة ومكامن قوتها وتأثيرها في المرسل إليه؛ وهذا ما يعلل هالته الخطابية وسطوته على قلوب مخاطَبيه.

لأن/ لكـن : تـرد الأولى في الخطـاب لتبريـر الفعـل، أو تبريـر عملـه، وتـرد الثانيـةباعتبارها أداة حجاجية، تبرز مبدأ التقابل الحجاجي،الذي يربط بين ملفوظين، يتضمن الأول هدفا حجاجيا، في مقابل في مقابل الثاني، بحيث أن المرسل لا يأخذ بعين الاعتبار إلا النتيجة الأخيرة[28] :

"...واقترح اقتراحا فهمنا مغزاه من أول حرف، لهذه المناسبة، وهو أن يزور كاتب هذه السطور والعقبي وفرحات عباس رئيسهم الأعلى السيد الحاج مصالي، **لأنه** ممنوع من الهبوط إلى الجزائر، وما كانت الحيلة لتخفى علينا، ونحن أعلم الناس بمسالك القوم وأساليبهم في الدعاية لأنفسهم، **لكننا** رجحنا شرف القضية على كل اعتبار، وقبلنا الاقتراح على طول الخط، فزرناه من الغد في جماعة"[29].

"....و**لأن** الوقت لم يحن بعد لزج الفتاة الجزائرية المسلمة في هذه المآزق"[30]

-أسفت لموت الشيخ أبي القاسم أعظم مما آسف لموت قريب، **لأن** هذه الطائفة التي كان الشيخ أبو القاسم أحد أفرادها إنما تتقارب على المشارب، لا على المناسب، وتتصاحب بالأرواح لا بالأبدان"[31]

"وما صلاح الدين إلا رجل كردي عادي لا يملك من ألقاب الشرف والحسب شيئا، كان يدعى يوسف بن أيوب وكفى، **ولكنه** كان صلاح الدين وحامي حمى المسلمين بحق،فهو قدر فع رأس المسلمين عاليان وحطم الصليبيين تحطيما، ورد غاراتهم ردا قرر مصير حياة المسلمين"[32]

الآليات البلاغية في الحجاج

الاستعارة :تتميز الاستعارة بأنها أكثر تأثيرا في الخطاب من اللفظ الظاهر، وذلك بسبب قوتها الحجاجية في الإقناع والتأثير في المرسل إليه، وهذا ما يجعلها مصنفة ضمن السلم الحجاجي، لان توظيفه لا يقصد به الجانب الجمالي وحده، بل يتعدى إلى الجانب الإقناعي بحيث تؤدي إلى تغيير في المواقف والسلوك، من خلال كشفها البعد الإيحائي والمجازي في اللغة، بارتكازها على فعل كلامي ضمني من خلال المقايسة بين حدين متباعدين،فيتولد عن ذلك فكرة جديدة مستوحاة من فكرة سابقة لا يكون بينهما أي رابطة ما عدا علاقة التشابه[33]

ويمكن تحديد ثلاث وظائف للاستعارة الحجاجية في الخطاب:

الوظيفة التقييمية وهي مرتبطة أساسا بوجهة نظر المرسل واستحسانه واستهجانه حسب رؤيته:"**طاف** بالأمة الجزائرية في سنينها الأخيرة طائف من يقظة وانتباه لا عهد لها بها في سنيها الغابرة،**وتفشت** تلك اليقظة في جميع طبقات الأمة كما يتفشى الروح الحيواني في أجزاء البدن كلها....وتنقلب النفوس منه بما ينقلب به الحي من السوأة العريانة....أنقاض من الدين **لابست** الدين الحق حتى أصبحت تسمى دينا، **وأشتات** متناقضة من الاستسلام"[34]

يبرز هنا رؤيته ووجهة نظره للوضع العام الذي تعيشه الأمة بعد أن أدرك أنها استيقظت بعد ليل طويل،وأصبحت هذه اليقظة متفشية في جميع الطبقات بفعل الحركة الإصلاحية التي بدأت تؤتي ثمارها، بعد أن كان الناس من قبل يتمسكون بما يشبه الأنقاض التي لامست الدين الحق، شبهها بالأشتات المتناقضة.

الوظيفة المنظمة للمجاز الحجاجي: وفي هذا النوع من الاستعارة يقوم المرسل بالجمع بين الحدود المرجعية والحدود المجازية: وأخلاط من **عواري الميول والمشارب تلونت بها نفوس جوفاء** حتى أصبحت تسمى أخلاقا، و**سفاسف** من لغو الحديث لا **تثير ذكرى** ولا **تذكي حماسا**، ولا **تهز عاطفة**، وقد **غمرت المجامع** حتى أصبحت تسمى أدبا. ومجموعة من الرطانات لا تجلي قصدا ولا تبين مرادا ولا تترجم عن مكنون، وقد **استولت** على الألسنة والأقلام، فأصبحت تسمى لغة"[35]

هنا يحاول أن يجمع بين الحدود المرجعية للاستعارة وحدودها المجازية:الحدود المرجعية في عواري الميول والمشارب،هي الميول والمشارب، أما الحدود المجازية فهي استعارة الميول والأخلاق، وهو فعل ينم عن الاستلاب وضعف الشخصية، لانها امور ذاتية لا يمكن استعارتها، لانها في الأصل تمثل جوهر الطبع الإنساني. نفس الشيء يمكن أن يقال النفوس التي تعتبر معنوية، فتتلون ، وهو دليل على الاختلال والاضطراب والاستلاب وعدم الثبات على الأصل فالتلون من وجهة النظر الأخلاقية يعتبر آثما. اما النفوس الجوفاء فهو كناية عن الجهل والفراغ الروحي والعلمي والثقافي مما يجعل صاحبه فريسة لأي طارئ كان فيتمكن منه...وغمرت مثلها مثل السيل الجارف فامتلات بها المجامع نظرا لغثائتها مثل غثاء السيل، نتيجة الفراغ الموجود. ونفس الشيء بالنسبة للرطانة التي

استولت على الألسنة والأقلام، بدل اللغة الجميلة والبيان الساحر الذي تتميز به اللغة العربية، فالاستيلاء هنا دلالة على التفشي والتحكم .

والوظيفة التمييزية التي تظهر فيها شخصية المرسل من خلال إيحاءاته الموضوعاتية والثقافية، وما يتبع ذلك من قيم جمالية وفنية تجسد الفكر أو وجهة النظر:

"وعلى رقعة من الأرض زكية الأغلال طيبة الغلال، تناهبتها الأيدي العاتية وتقاسمتها الكتائب المغيرة، حتى لم يبق لها منها إلا حظ الميت، قبر يمسح بالشبر،ولكنها على رغم ذلك تسمى وطنا. وعلى أوشال من الرزق يبض بها الكد المرهق، وينتضح بها العرق المتصبب، وينطف معها دم المهج، وتنتزع من أنياب الأفاعي انتزاعا ولكنها مع ذلك كله تسمى مالا...وعلى غثاء من الأناسي كغثاء السيل المتساوي الغيبة والمشهد...ولكن هذا الغثاء برغم ذلك كله يسمى أمة"[36].. سياسة مضطربة الجوانب، مقلقة الركائب،لا يقر لها قرار "[37]

ويظهر هذا المقطع القوة التمييزية عند الإبراهيمي وإدراكه العميق لسياق الأحداث: فبالرغم من كل النكبات التي عرفتها هذه البلاد فإنها تبقى وطنا لنا : فبالرغم من التناهب والتقاسم، فالأرض زكية طيبة الغلال،معطاءة تجود ببعض الرزق نتيجة الكد المضني،فكأنه ينتزع من أنياب الأفاعي انتزاعا، ومع ذلك يدرك باقتدار ان الامر سيهون عاجلا أو آجلا.

السلم الحجاجي

يتحول الحجاج في الخطاب على هذا المستوى إلى علاقة بين القضية والحجة إلى علاقة شبه منطقية، إلا أن تجسيدها يتم عبر أدوات لغوية، فيتم ترتيب الحجج ترتيبا مقصودا فـ"كل قول يقع في السلم الحجاجي يلزم عنه ما يقع دونه، بحيث يلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين،كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه"[38]

"ومما علمناه من شؤون الاجتماع البشري أن **الكمال فيه نسبي إضافي، فما من كمال إلا وفوقه كمال، وان الكمال في المجموع متوقف على الكمال في الأفراد، وأن النقص في المجموع متوقف على النقص في الأفراد**، فمتى أخذ الأفراد بأسباب الكمال وسلكوا له وسائله كمل المجموع. ومتى قعد الأفراد عن تعاطي أسباب الكمال فشت النقائص في المجموع. وإنما **تتفاوت حظوظ الأمم في الكمالات المكتسبة كالغنى والعلم والتضامن والتعاون**

والاتحاد والترقي في أسباب المعيشة. ويتضح من هذا كله أن كل ما يسمى من أحوال الأمم تطورا هو في الحقيقة مداورتها بين النقص والكمال صعودا وهبوطا"[39]

"إن جمعية العلماء تعمل لسياسة التربية لأنها **الأصل**، وبعض ساستنا –مع الأسف– يعملون لتربية السياسة، **ولا يعلمون أنها فرع لا يقوم إلا على أصله؛ وأي عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع**.." [40]

وفي الأخير، لا يمكننا أن نقول أن مبايعة الإمام محمد البشير الإبراهيمي ملكا للغة العربية في مجمعها بالقاهرة، كانت جزافا. فقد امتلك الرجل ناصيتها وناصية جمهورها ومحبيها، بفضل ما وهبه الله من سطوة بلاغية، وملكة أدبية، وإستراتيجية خطابية،جعلت منه خطيبا مفوها.ويمكننا حصر كل هذا في بعض العوامل الآتية:

الكفاية التداولية والثقافة الموسوعية عند الشيخ، ومعرفته بالتاريخ والفلسفة والمجتمع ولغاته ولهجاته وعاداته وتقاليده وعمرانه وأحواله، فحصلت له هذه الملكة اللغوية النادرة ، وملكة منطقية صارمة، وملكة معرفية واسعة، وملكة إدراكية واسعة، واجتماعية شاملة، وفكاهة وظرف نادرين.

كل ذلك كان يتم عبر إستراتيجية خطابية تعتمد على الأسس التداولية المعاصرة، موظفا في ذلك آليات لغوية وبلاغية مكينة.

الهوامش:

1. احمد طالب الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، بيروت ، نقلا عن آثار عبد الحميد ابن باديس ، الجزائر ، وزارة الشؤون الدينية،1994،ج6، ص.156.
2. نفسه، ص.16
3. محمد الهادي الحسني، مقدمة الجزء الأول،آثار محمد البشير الإبراهيمي ، مصدر سابق، ص .26
4. احمد طالب الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، بيروت، ص.6
5. نفسه.
6. أثارا لإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2، مصدر سابق،ص.11مقدمة عبد الرحمن شيبان، ص.11 مجلة الثقافة الجزائرية، ع 87، مايو–يونيو، 1985،
7. نفسه، ص.ص.17، نقلا عن مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، العدد 24، يناير 1969.
8. نفسه، ص.19، (نقلا عن مجلة "الثقافة"، الجزائر، العدد 87، مايو 1985، ص.8

9. المصدر السابق، ص.8
10. Landowski. E. La société réfléchie, Paris; Seuil;1989;p.230.
11. Alonso Aldama.J."Modèles sémantiques de rationalité et rationalité stratégique chez Lawrence d'Arabie», Modèles linguistiques, 47, Paris, 2003, p.29.
12. Ibid.
13. De Montrbial. T.,stratégie, in dictionnaire de stratégie ,dir,de Montbrial T,et Klein J.,Paris, Puf , 2000,527
14. Zrinka Simunic, une approche modulaire des stratégies discursives du journalisme politique, thèse de Doctorat, Université de Genève, faculté de lettres, Juin 2004
15. O.ducrot & Anscombre, l'argumentation dans la langue, Pierre Mardaga Editeurs, Bruxelles, 1980, p.7-8
16. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب،مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد/دار الكتب الوطنية بنغازي/ليبيا،ط1 ،2003، ص.48/46
17. نفسه، ص.57
18. العدد 16، 11 جانفي 1946
19. محمد سالم ولد محمد الأمين"مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره، وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر الكويت، مج 28،ع3 ، مارس 2000، ص.72(نقلا عن عبد الهادي بن ظافر الشهري، مرجع سابق، ص.58)
20. بعث الإمام الإبراهيمي هذه الرسالة إلى الطلبة الجزائريين بالزيتونة، مشاركة لهم في إحياء الذكرى السابعة لوفاة الغمام ابن باديس (أفريل 1947) ونشرت في جريدة العبقرية،ع3، تلمسان،الجزائر،1366هـ.(هامش المؤلف،المصدر السابق، جـ2، ص152
21. http://ebooks.unibuc.ro/lls/MarianaTutescu-Argumentation/27.htm
22. H.Paul Grice, « Logique et conversation », in communication, n°30, La conversation 1979 ;60-61
23. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص. 259
24. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مصدر سابق جـ3، ص 117

25. نفسه، ص.129
26. نفسه، ص.127
27. نفسه، جـ1، ص.243
28. http://ebooks.unibuc.ro/lls/MarianaTutescu-Argumentation/40.htm
29. آثار الإبراهيمي، مصدر سابق، جـ2، 259
30. نفسه، ص.276
31. نفسه، ص.282.
32. نفسه، ص.299
33. Pierre Fontanier, Les figures du discours, Flammarion, Paris, 1968, p.99
34. آثار الإبراهيمي، مصدر سابق جـ1، ص.239
35. نفسه، ص.239-240
36. نفسه، 241
37. نفسه، ص.240-241
38. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،ط1، المركز الثقافي، الدار البيضاء، 1998، ص.277-278
39. آثار الإبراهيمي ، مصدر سابق، جـ1، ص201-202
40. آثار الإبراهيمي، جـ، ص.65